الفصل السادس

الحب والجمال عند الحيوانات

حيث توجد غريزة نسلية يوجد حب.. وحيث يوجد حب يوجد جمال لتغذية الحب. فلا بدع إذا أن يوجد عند الحيوانات حب وجمال، وإن كانا فى الحيوان أضعف منهما فى الإنسان. حتى فى النباتات حب وجمال أيضا. والجمال الذى فى النبات وسيلة لحدوث اللقاح بين الذكر والأنثى. فالزهور الجميلة العطرة إنما هى إغراء للحشرات المختلفة ولاسيما النحل لكى تقع على الزهر فتلوث أرجلها وخراطيمها بذرات الذكور الملقحة، حتى متى وقعت على العضو الأنثوى فى النبات أصابته تلك الذرات فتلقحه.

والحيوانات، ولاسيما العليا كالإنسان، تحب وتنجذب إلى الجمال والقوة. وبعضها تعشق عشقا شعريا أيضا.

والغالب فى حب الحيوانات الغريزة التناسلية وقليلا تظهر فيه عناصره الأخرى من غيرة وتعبد وتضحية إلى آخره. وقد شرح العلامة العظيم دارون فى كتابه تسلسل الإنسان حب الفقاريات ولاسيما الطيور، وأبان فعل الجمال فيها، والقوة فى حبها. وغرضه من ذلك إثبات نظرية الانتخاب الطبيعى والتناسلى فى عملية التطور التى قضت بنشوء الإنسان من الحيوان. فتقتطف بعض نتائج درسه الطويل فيما يلى للتفكه والفائدة ولاستيفاء البحث فى موضعنا:

١- حب السراطين وقوتها:

فى ذكور بعض الحيوانات السرطانية الساق اليمنى أكبر من الجسم كله لأن الذكر يستعملها فى محاربة الذكور. فالذكر والأنثى يعيشان فى وكر واحد. والذكر يسد باب الوكر بساقه الكبرى الضخمة ليمنع دخول ذكر آخر، ويستعملها أيضا فى القبض على الأنثى.

وذكر السرطان المحارب يحمل الصدفة التى تقطن فيها الأنثى عدة أسابيع ثم يواقع الأنثى بعد أن تلين صدفتها، لأنه حينئذ يجرحها بكلاب ساقيه توصلا للأنثى نفسها.

معظم أنواع السرطان يقتتل ذكورها فى سبيل تنازع الإناث. ولذلك ترى هذه الذكور أكبر حجما من الإناث وكلاباتها أضخم وأقوى لهذا الغرض.

وقد وضع أحد علماء الحيوان ذكرا فى وعاء من الماء، كان فيه أنثى وذكر أصغر حجما من الأول. ففى الحال ترك الذكر الصغير أنثاه، فاستلمها الكبير بلا نزاع. وفى امتحان آخر فصل هذا العالم ذكرا عن أنثاه من بين عدة ذكور وإناث كانت فى وعاء واحد. فما لبثت الأنثى أن اتحدت مع ذكر آخر. وبعد حين أعاد الذكر إلى ذلك الوعاء نفسه. فبعد أن طاف برهة اقتحم جمهور السراطين. ومن غير نزاع ظفر بزوجته وأخذها. ومن ذلك استدل أن كلا من الزوجين يعرف أحدهما الآخر ويتحدان.

٢- الجمال فى أنواع السرطان:

وروى العلامة فرتز مولر: أن أنثى نوع سرطانى ذات لون أسمر رمادى، وأن مقدم الذكر أخضر ناصع مائل إلى السمرة الحادة ومؤخرة أبيض ناصع. والغريب أن هذه الألوان تتغير فجائيا فى بضع دقائق. فالبياض يتحول إلى رمادى قذر أو إلى سواد، واللون الأخضر يفقد لمعانه. ولوحظ أن الذكر لا يتلون باللون الأخضر إلا

حين يبلغ دور اللقاح. والذكور أكثر عددا جدا من الإناث. ولذلك يرجح أن الذكور تكتسب لون الخضرة اللامع لكى تغرى الإناث بجمالها هذا.

٣. حب العناكب:

وقد روى العلامة بلاك وول: إن بعض العناكب تتلون ذكورها فى دور اللقاح إغراء لإناثها. والذكور تسعى سعيا حثيثا إلى الإناث. ولكن الأنثى تدفع عنها الذكور التى تغازلها وتتهددها بخراطيمها القوية، وبعد تردد طويل تقبل الذكر الذى استحبته.

وقد علل داروين صغر أجسام الذكور بأن الإناث أقوى من الذكور جدا وهن يفترسنها. وبالطبع تتفى الأنثى أكبر ذكر للافتراس. ولذلك لا يبقى لها إلا الأصغر للملاقحة. وعلى التمادى أصبحت الذكور بفعل الانتخاب الطبيعى صغيرة.

٤- حب البراغش والصراصير وموسيقاها:

تتطاير أنواع البرغش حول الأنوار الساطعة مداعبة ذكورها إناثها دعابا طويلا قبل أن يظفر ذكر بأنثى.

وبعض أنواع البراغش والبعوض تحاول ذكورها أن تغرى إناثها بطنين أجنحتها الموسيقى. وقد لاحظ مولر ذكرين يحومان حول أنثى وهما يتنافسان بالطنين الموسيقى حتى ظفر بها أحدهما الأقوى صوتا.

وقد أكد الأستاذ ماير أن شعور جناحى البرغشة تهتز اهتزازا عنيفا يصدر صوتا موسيقيا يضارع صوت الشوكة الموسيقية التى يستعملها الموسيقيون لاقتباس الصوت عند دوزنة الآلات. وقد لاحظت أن الأنثى تنجذب إلى لحن خاص. فتقبل الذكر الذى يستطيع إصدار هذا اللحن. ولا يخفى ما فى ذلك من الدلالة على ارتقاء العصب السمعى والذوق الموسيقى عند هذه الحشرات.

وقد روى الكابتن هانوك : أن نوعا من هذه الحشرات يسمع طنينه على بعد ميل، وكان الإغريق قبلا والصينيون الآن يحفظون هذه الحشرات فى أقفاص ليسمعوا طنينها لأنه يلذ لهم .

وروى فريتز مولر أنه كان يتسمع مناظرة ذكرين أو ثلاثة فى الطنين ، وهى متجمعة حول أنثى ، وكل ذكر يصوت على حدة برهة ، ثم يسكت فيصوت الآخر، إلى أن تختار الأنثى أحد الذكور . والإناث تسرع إلى الذكور حيث تسمع أصواتها .

والصراصير تصرصر لغرضين : الأول لكى يجذب الذكر الأنثى إليه. والثانى لكى ينذر المناظر له من الاقتراب إليه، لئلا يقعا فى قتال عنيف.

ولذكور الصراصير أصوات تختلف عن أصوات الإناث. وهى تصدر هذه الأصوات باحتكاك الجناح الأعلى على الجناح الأسفل. ولكل جناح صفوف من الزغب تتوتر بجهاز عصبى. وباحتكاك الأعلى على الأسفل يصدر الصوت. فهى تتغازل بهذه الأصوات

٥- حب الأسماك وقوتها وجمالها:

كثير من الأسماك يقتل ذكورها تنازعا للإناث . وفى كثير منها يصنع الذكر عشا للأنثى ويرقبها إلى أن تخرج من وكرها ، ويحاول أن يدفعها إلى العش الذى صنعه لها إلى أن يدخلها إليه.

وقد رأى الدكتور جنتر ذكرين من نوع سمك السلمون يتقاتلان طول النهار حتى كلّ أحدهما ، فظفر الآخر بالأنثى. وقد روى أحدهم أنه شاهد اقتتال ذكور السلمون وهو مراقب فوق جسر. فكان الذى يعيل صبره منها ، وتكل قواه ، يلجأ إلى الشاطئ. وكان القتال عنيفا حتى أن بعضها كانت تموت . وأخيرا وجد نحو ٣٠٠ منها قتيلة على الشاطئ.

ومعظم الأسماك الملونة تستخدم ألوانها بغرض المزاوجة أيضا.

وهناك أنواع من الأسماك يعتنى ذكورها بتهيئة العشوش للإناث ، حيث تبيض بيوضها . والذكور تعتنى بنقف البيوض وتربية الصغار. وبعض الإناث تحاول أن تلتهم البيوض ، فتطردها الذكور من عشوشها حرصا على سلامة الصغار. ومعنى ذلك إلى الغريزة العائلية موجودة فى الذكور.

وذكور الضفادع تقتتل حتى الموت فى تنازع الإناث. ونقيق الضفادع خاص بالذكور اجتذابا للإناث.

٦- حب الطيور وجمالها:

جمال ذكور الطيور يلعب دورا عظيما فى الحب النسلى، ولعل للطيور أعظم نصيب من الجمال ، وتليها الأسماك الملونة. وقلما تتنازع ذكورها بالقتال مع أن لبعضها أسلحة للقتال فى مناقيرها وأظافرها . وإنما هى تعتمد بالأكثر على فتنة الإناث بجمال ريشها وطوله وألوانه الجميلة. وبعضها تعتمد على الرقص على الأرض أو فى الهواء. وبعضها تعتمد على الزقزقة . ولزقزقة بعضها ما يتأثر بالموسيقى . وبعضها تنفث رائحة عطرة لإغراء الأنثى ، كالبط الإسترالى المسكى ، إذ تنبعث منه رائحة ذكية فى أشهر الصيف . وهكذا تعد الطيور على أعظم جانب من أنواع الجمال البصرى والصوتى والشمى بعد الإنسان. ولها ذوق عقلى فى الجمال كالإنسان تقريبا. ولذلك ترى الإنسان يطرب بزقزقة العصافير والنساء تتجمل بريش الطيور.

ومن رأى الطاووس وهو ناشر ذيله البديع يتعجب من جمال لم يحصل عليه الإنسان إلا بالاستعارة

وقد روى داروين أن نوعا من الطيور فى الولايات المتحدة يجتمع نحو عشرين من ذكوره فى بقعة حيث تتنافس بالزقزقة . وحالما تميل الأنثى لذكر تشرع الذكور

تقتتل. والأضعف يحيد عن ميدان القتال. وكلما أعيا القتال ذكرا انصرف حتى إذا لم يبق إلا واحد ذهبت الأنثى معه. فإن عاد آخر ينازعه إياها تجدد القتال، إلى أن يغلب أحدهما الآخر فيذهب معها.

وقد بلغت مسألة الانتخاب عند الطيور حدا قصيا، حتى إن بعضها لا تتزاوج لأن الإناث لم يرق لهن ذكر من الذكور التى تنافست فى إغرائها وإثارة عواطفها. وقد روى جوير: بأن مغازلة الطيور تستغرق وقتا طويلا. وقد ينقضى الفصل كله ولا تنجح الذكور والإناث فى إثارة الحب، فلا تتزاوج. فهى تشابه الإنسان من هذا القبيل بعض المشابهة فإن كثيرين من الفتيان يقضون الشبيبة وهم يبحثون عن أليفات فلا يجدون لأن ذوقهم متعنت، لا يعجبه العجب.

٧- عشق الطيور:

ولبعض أنواع من الطيور حب مبرح، بحيث إذا فقد الإلف ألفه، حزن عليه طويلا. فقد ذكر داروين، أن ذكر الببغاء وأنثاه يتعاشقان ويتلازمان طويلا، حتى إذا مات أحدهما أسف للآخر عليه أسفا شديدا وإذا قنص أحدهما بقى الآخر مدة طويلة ينادى نداء محزنا

وروى « بنت » أن ذكرا من البط سُرِق فبقيت البطة بعده حزينة لا تقبل عزاء من أى ذكر آخر، وما استطاع غيره أن يفتنها ويغرها. وبعد ثلاثة أسابيع أعيد الذكر إلى مكانه، فعاد الألفان يأتلفان مبتهجين.

وللحمام ألفة كألفة البشر فقد لوحظ أن زوجى حمام عادا إلى عشرتهما بعد فراق تسعة أشهر متذكرا كل منهما الآخر

٨- شفقة الطيور:

وللطيور شفقة كشفقة البشر. فقد لوحظ أن أنواعا منها تعتنى بصغار غيرها إذا فقدت أمهاتها أو حاضناتها. وقد روى بكستون أن ببغاء عنيت بطير آخر من غير نوعها، وكانت تنظف ريشه وتحميه من اعتداء غيرها.

٩- تجمّل الطيور ومغازلتها:

ولبعض الطيور غرام بالجمال الصناعى أيضا كالبشر. فقد ذكر جولد أن بعض العصافير تزين ظاهر عشوشها تزيينا يدل على ذوق عقلى عجيب. فهى تزخرف أطراف العش بقطع من نبات البحر وتضع القطع الكبرى فى الوسط والصغرى على الجزء المتصل بالغصن، وتضع هنا وهناك ريشة بحيث يكون عرق الريشة فى الداخل وزغبها إلى الخارج.

وفى أستراليا نوع من الطير غريب عجيب فى تنظيم مصاطب المغازلة، وهى مصاطب تبنيها هذه الطيور من القش والريش والحصى والأعواد .. إلخ. بسعة قدمين أو أكثر. والذكور تتراقص عليها إغراء للأنثى. ولها فيها ترتيب نظامى كأنها صنع إنسان مهندس مزخرف.

١٠- تزاوج الأبعدين عند الطيور:

أغرب من كل ما تقدم أن بعض الطيور تتزاوج مع أصناف من نوعها من غير صنفها فتولد أصنافا جديدة. فهى من هذا القبيل كالبشر، لا يتزاوج الأقرباء منهم مع الأقرباء، بل مع الغرباء عن الأسرة. وقد روى داروين عن أصناف من الطيور فى كندا وفى بريطانيا تجرى على هذا النحو فيتزاوج الصنف مع صنف آخر.

وقد روى القس فوكس أنه حين كان فى الصين كان عنده زوج من الأوز فلم يتزاوجا. وإنما لما وضع معهما نوعًا آخر من الطيور المائية تزوج ذكره الأوزات.

١١- انتخاب الأزواج:

وكثير من الطيور تختار الذكر الذى تحبه دون سائر الذكور من غير أن تتنازعها الذكور بقتال. فقد روى «أودوبون» الذى قضى ردحا من الزمن فى أحراش الولايات المتحدة يدرس طبائع الطيور: أن الأنثى لا تقبل على أى ذكر يعرض لها بل تتئد جدا فى اختيار عريسها، وتراقب مغازلة كل ذكر حتى يروق لها واحد، فتذهب معه.

أغرب من ذلك ما لاحظه « أودوبون » جيدا . وهو أن الذكر الأكبر سنا كان أسرع نجاحا فى استهواء الأنثى بمغازلته لها ، كأنه برع فى فن المغازلة . ولذلك كان الذكر الأكبر عمرا أسعد حظا فى الحب . وقد لاحظ أن فتيان الذكور العزاب وعرائس الإناث كانت تنصرف عن ساحة المغازلة ، وتترك الأمر للشيوخ والفتيات .

مع ذلك لا تقتصر المغازلة على الذكور ، ولا يقتصر حق الاختيار على الإناث ، بل كثيرا ما ينعكس الأمر بعض الانعكاس ، فتقتتل الإناث تنازعا للذكور ، وتتنافس فى جمالها لإغراء الذكور. فقد لاحظ « أودوبون » ذلك فى الدجاج الرومى، كما يسمى فى مصر ، أو الحبشى كما يسمى فى سوريا ، أو التركى كما يسمى فى إنجلترا وأمريكا . فإن الإناث تبتدئ بالمغازلة استهواء للذكور.

والغالب أن الاختيار للأنثى . وأما الذكر فيقبل أى أنثى يظفر بها. وندر أن يكون الذكر مختارا أيضا. فقد روى داروين أن الديك الداجن يفضل الدجاجة الحديثة السن على الدجاجة العتيقة . ولوحظ أيضا أن بعض الديوك تختار دجاجات دون أخرى.

١٢- تنازع أزواج الطيور:

بسبب هذا التنازع أو التنافس يقل تعدد الأزواج والزوجات عند الطيور فيندر أن تشترك الإناث فى مزاوجة ذكر ، أو الذكور فى مزاوجة أنثى ، لأن القتال أو التنافس فى الاستهواء يفضى أخيرا إلى فردية المزاوجة.

روى جنروير : أنه أدخل أنثى قبيحة إلى دار الطيور. فما لبثت أن خاصمت أنثى أخرى وقتلتها . فاضطرت تلك أن تعتزل . فبذلت القبيحة كل جهدها فى المغازلة حتى فازت بالذكر. وبعد حين ضعفت ، فعادت الأولى تنازعها زوجها حتى ظفرت به .

كل ذلك يدلك على أن للطيور ذوقا حادا فى تمييز الجمال والإعجاب به والانفعال منه ، كما أن لها قوة غريبة فى التفنن بالمغازلة

وهذا الذوق العجيب الذى يضاهى ذوق الإنسان هو علة ارتقاء الجمال الصوتى والنظرى فى الطيور كما علله داروين بسنة الانتخاب الطبيعى والتناسلى. إذ لا يخفى عليك أن الذكر الأجمال شكلا ينجح فى المزاوجة والأقل جمالا يفشل. ذاك يكون له نسل ، وهذا ينقطع نسله . وبفعل ناموس الوراثة تتجه السلالة إلى إنتاج الأجمل.

١٣- حب الحيوانات الثديية:

الحيوانات الثديية أقل جدا من الطيور إعجابا بالجمال واستهواءً به . ومع ذلك فإنها تتنازع فى الحب. وتستخدم قوتها البديعة فى النزاع والاختيار ذكرا وأنثى. ولبعضها نصيب من العشق أيضا . فقد روى كوبلس لداروين : أن كلبة عشقت كلبا ، فما كانت لتفارقه إلا مرغمة. وأخيرا أبعدت عنه بتاتا فلم تعد تقبل كلبا آخر بدله كل حياتها .

وقد ذكر الكابتن بريان أن الفقمة – التى تعيش فى الماء واليبس على السواء – يجتاز الذكر منها الأنثى ويستأثر بها ، ولا يقصر فى مغازلتها واستهوائها . والعادة أن الذكور تتربص على اليبس ، حتى إذا صعدت أنثى قابلها أحد الذكور وصات أصواتًا تشابه أصوات الدجاجة . ثم يلاطفها ويداعبها حتى يحول بينها وبين الماء. وحينئذ يتغير سلوكه معها ، فيصبح شرسا ، فيدفعها إلى كنه . وهكذا لا يزال يقنص الإناث حتى يمتلئ كنه منها. وثم يختار إحداهما بينما أقرانه منشغلون فى اقتناص الإناث مثله. وهم يمسكونها بأفكاكهم كما تمسك القطط جراءها. ولا يندر أن يقع خصام بين الذكور فى سبيل اقتناص الإناث.

الغرائز عند الطيور والحيوانات:

ولقد شرح العالم « لويس هنرى مورجان » شرحا تجريبيا. جمع بيض دجاج، وهيأه للإفراخ، فسمع صياح الأفراخ قبل تثقب القشرة، ووجد الفرخ وهو داخل القشرة يحاول أن يثقب الخزانة الهوائية الداخلية، ليستنشق ما فيها من الهواء، ثم يشق القشرتين بنفسه ليخرج إلى عالم الحياة والوجود، وضع هذه الأفراخ فى حظيرة، وعزل بعضها عن بعض، ورمى إليها حبوبا مخلوطة بالحصى، فشاهدها جميعا تتبع نظاما واحدا فتزدرد الحب وتنبذ الحصى، ثم تدلك منقارها بالأرض يمنة ويسرة، تفاديا مما يكون علق به، ثم عاد فخلط هذا الحصى بالحب، ورمى به إليها، فرآها تفعل ما فعلته أولا، يهيجها نظر الحب ويبعث فيها الشوق إلى التقاطه، ثم إن ذوقها الفردي يدفعها إلى زرده أو نبذه. كل هذه الحركات المنتظمة المتجانسة خاضعة لسلطان الغريزة ولا دخل للكسب فيها.

ومن يطلع على غرائز الحيوان لا يسعه إلا الدهشة من بديع خلقها، وغريب أثرها. فنمل الحقول بحذقه الفطرى ينقل بيضه من ركن إلى آخر تكون حرارته كافية لفقسه. والخفاش يتقى ما يقع أمامه من الحواجز ، وهو طائر فى جنح الليل ، بما يشعر به من الصدى. فإن جناحيه يهزان الهواء ، فتنتشر أمواجه ، وتنعكس على ما تلاقيه من الأشباح ، وتعود إليه فيشعر بها.

والعنكبوت تغزل من لعابها خيطا ، تلصق طرفه بالسقف ثم تهبط عليه أو تصعد ، وتنسج من خيوطه شباكا ، تتخذها شركا لصيد الذباب.

والحرباء تتلون بلون ما يجاورها ، فيكون ذلك ردءا يدفع عنها العدوان . والقنفذ وقد تسلح جسمه بالحسك ، يضم بعضه إلى بعض إذ أحس مكروها . والقط ينتفخ فيحكى صولة الأسد فى ساعة الخطر . ولكل حيوان خاصة تناسب أعضاءه يجردها للدفاع عن حياته ، ويعرف بغريزته كيف يستعملها ويناضل بها ، حرصا على نفسه وعلى حياة نوعه.

والفراشة عندما تدب فيها الحياة ينمو فيها الوازع للسعى وراء القوت ، ولحفظ النسل ، فتعرف أين تضع بيضها ، وكيف تدخر القوت لصغارها ، ناسجة فى ذلك على منوال سلفها ، مع أنها لم تختلط به اختلاطا يؤذن بالمحاكاة .

أما الإنسان فقد خلق ضعيفا محتاجا إلى المعونة فى كل مطالب الحياة . ولا يدرى أهذه طبيعة فيه ؟. إن أثر فيه التحضر ، فحرمه منذ أجيال عديدة لذة الاستفادة من تمرين غرائزه وتدريبها ، ففقد النخوة ، وورث الجمود ، وتعود الاستناد إلى غيره ، ولا يزال الضعف يتسرب إليه من جيل إلى جيل ، كلما ارتقت به المدنية إلى معارج الكمال ، شأن الإنسان المتحضر إذا قيس بالبدوى الذى يعيش فى الصحراء.

واعلم أن الماعز والبقر يشبهان الغزال وبقر الوحش ، غير أن البيئة فرقت بين طبيعة كل منها ، فضعف الماعز ، وقوى الغزال ، إلى حد أنك لو تركت الماعز دون أن تمده بالغذاء ما سعى إلى القوت سعى الغزال ، بل تعييه الحيل فى الاحتفاظ بحياته فيموت جوعا.

الحيوان والإنسان :

تتحير عقولنا إذا نظرنا إلى خلقه وحركاته وانقياده لسلطان الغرائز ، وقد يشارك الإنسان الحيوان فى بعض هذه الغرائز فيستأنس بذلك ، ولا يعجب من فواعلها كما يعجب من مثل غريزة الهداية إلى الوطن عند بعض الحيوان وعند أكثر الطير والحشرات. أخبرنا التاريخ أن حمام الزاجل حمل الرسائل وطار بها من مكان إلى آخر ، حتى استخدم فى الحصار ، لحمل الأخبار ، وقد أقامت له مصر فى العصور الغابرة أبراجا ، وعينت لها حراسا يراقبون وصول الحمام ليلا أو نهارا.

والفواخت وهى من ذوات الأطواق تقطن الأقاليم الشمالية ، وإذا آلمها البرد هجرت موطنها ، وطارت مسترشدة بقائد تختاره من بينها إلى حيث يطيب لها المقام، ثم تقفل راجعة إلى وطنها فتهتدى إليه كأن بينها وبينه جاذبية ، وربما لا يتأتى لها وهى طائرة فى جو البحار أن ترى معالم تتعرف بها طريق الوصول.

ربيت قطا بمنزلى ، فوضعته فى قفص مغلق ، وأسدلت عليه غطاء وأطلقته على مسافة بعيدة . وما كاد يمضى أسبوع حتى عاد إلى منزلى وهو يموء بصوت المعتذر المستاء .

نتلمس السر فى الهداية إلى الوطن عند هذه الحيوانات فلا نفهمه ، لأننا لا نشاركها فى هذه الغريزة . ويتبادر إلينا أن الحيوان يعتمد على وجدانه ، أو أن له قوة خفية تدرك التغيرات التى يلقاها فى طريقه فى أثناء مهاجرته فيضبطها ثم يستذكرها عند مسيس الحاجة .

وإذا أنعمنا النظر إلى « الزنبار » نراه قبل أن يتحول عن عشه يحوم حوله على دوائر صغيرة فكبيرة ، كأنه يرسم فى خياله معالم موطنه لتساعده على الاهتداء إليه.

أما الإنسان فما أضعف حظه من القوى البدنية ، تلقاء ما يموج بصدره من آلاف المطالب فيما يتعلق بغذائه وملبسه ومسكنه ، حتى دفعته القدرة الإلهية إلى مشاركة بنى نوعه فى ميادين المحاكاة والمنافسة ، ودائما يكد لسد نقصه . ومع أن حبه هذه المشاركة فطرى ، لا ينال غرضه على ما ينبغى إلا بالتعليم الصحيح الذى يلائم ما ركز فيه من الاستعداد للتعلم ، والاستفادة من التجارب الذاتية والنوعية ، والتكيف عند عروض الحوادث ، ولذلك تفاوتت درجات الناس فى الجدارة ، على أن اختلاف العناية بهذا الاستعداد وبذرائع التعليم أوجد بين أفراده تفاوتا كبيرا ، كالذى نراه بين الحيوان الوحشى والداجن الذى من نوعه ، فالوحشى بعد ميلاده يعتمد على محض سعيه ، والداجن يستند إلى غيره فيفقد قوة السعى الغريزية.

ولا يخفى أن الطفل إذا زاول الأمور بنفسه ، فى حالتى يسره وبؤسه وذاق من الحوادث مرها وحلوها ، وتقلب على نار الكوارث صغيرها وكبيرها ، يكون على شاكلة أهل البادية رجلا شهما.

أما الطفل الذى قعد به حظه ، وساءته تصرفات المشرفين عليه ، فاحتفظوا به

كالمتاع خشية أن يؤذيه هبوب النسيم إذا هب ، فتراه مغبون الحق ، ضعيف الصحة، سقيم الرأى كالذى نراه بين أبناء الطبقة المترفة .

يخرج الطفل إلى عالم الوجود مجردا عن معرفة اللغة التى يعبر بها عن أغراضه ، جاهلا سنن الكون ، لا يملك إلا الاستعداد الفطرى الذى يرهف التعليم حده ، ويزيده مضاء وشدة . فما بالنا حينئذ نهمل تقويمه وهو يزداد بالاختبار نبلا ونتخم فكره بالمعانى الصعبة ، ونلقيه قضايا العلوم الدقيقة لنخرجه قبل أوانه رجلا كبيرا ، لماذا لا نسلمه إلى الحوادث فيتعلم من خيرها وشرها ، ما ينبه التفاته ، ويقوّى مداركه ، ويفيده فى معترك الحياة.

إن للتعليم نظاما إذا روعى حول الطفل الضعيف إنسانا كبير النفس قوى الإرادة. وها هوذا قد احتواه جوف الأرض باحثا ومنقبا عن خيراتها الدفينة ، ورفرف فى الهواء حتى صارع النسور على قمم الجبال، وخاض البحار ، واتخذ من البخار والكهرباء خادما لمصالحه فى حلة وترحاله .